كتب الأطفال المصورة

كتب الأطفال المصورة

أ.عبدالتواب يوسف

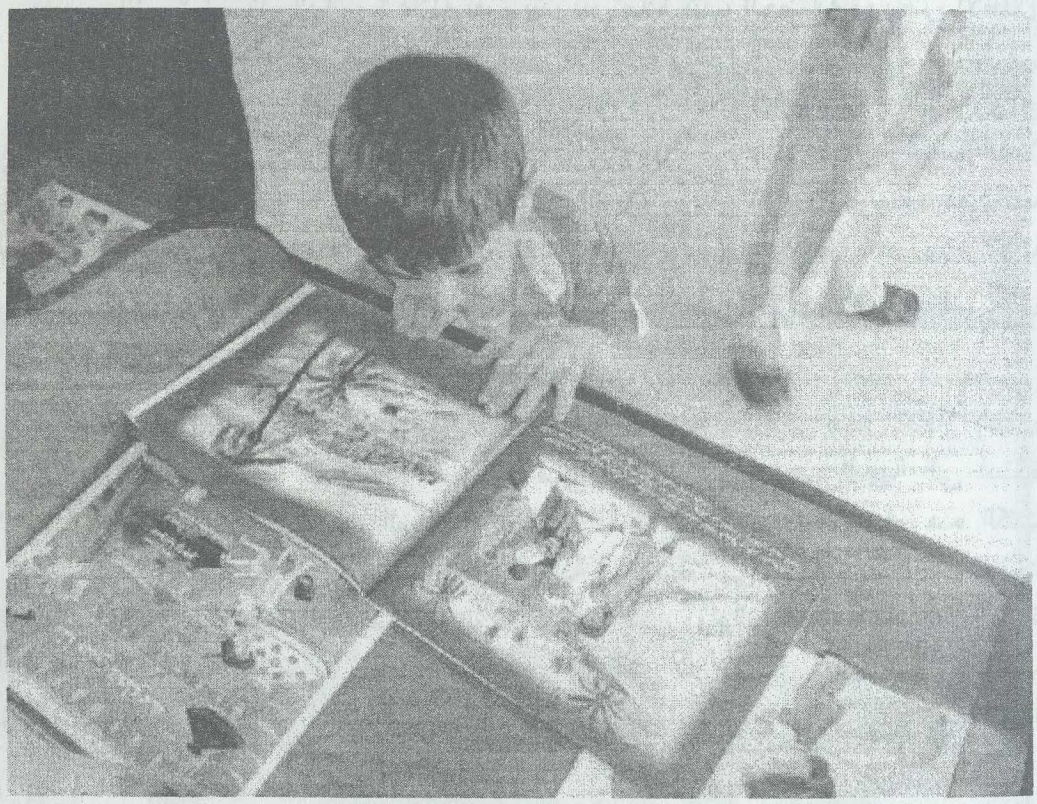

ماذا تعنى هذه العبارة "كتب الأطفال المصورة" ؟ وما الفارق بينها وبين "كتب الأطفال المرسومة" ؟ البعض يظن الكتب التى تحتوى "سيناريوهات" مسلسلة متتابعة – مثل ميكى وتان تان – كتبًا مصورة. آخرون يظنونها كتبًا للأطفال تضم صورًا فوتوغرافية، إذ تخدعهم هذه الصفة لهذه الكتب. وهناك من يحسبها الكتب الصادرة لدور الحضانة ورياض الأطفال، وكلها صور، وتخلو تمامًا من الكلمات.

وكثيرون يتساءلون : ماذا يعنى أن " نرسم" كتابًا للأطفال، ومعنى أن "نصوره" ؟ وما هو دور الرسم ودور التصوير فى كتب الأطفال؟ وإذا كانت عندى قصة، هل يمكن إصدارها مرة فى كتاب مصور،وأخرى فى كتاب مرسوم؟ ثم، هل من الضرورى ألا تتجاوز كلمات الكتاب المصور ألفى كلمة؟! ومن هو الذى قرر هذا وفرضه؟!..

ثلاث حكايات صغيرة ومهمة

١- كنت أتحدث فى ندوة بمكتبة القاهرة الكبرى، ومن بين ما قلته إننا نفتقر إلى الكتب المصورة للأطفال، وإنه من المؤسف أن هذا النوع لم نتعرف عليه بعد، وإنه من

الجدير بنا أن نصدر منه سنويًا عشرات الكتب، خاصة وأن الدول المتقدمة قد أصبح رصيدها منها بالآلاف.. وتصدى لى أستاذ جامعى أقدره وأحترمه، وقال فى غضب : أنت تكرر دائمًا بأنه ليس لدينا شيء، أتمنى أن تكف عن هذا، خاصة وأننى شخصيًا والدكتورة فلانة نقوم بتدريس مادة كتب الحضانة ورياض الأطفال فى الكليات المختلفة مثل كليات رياض الأطفال، والتربية النوعية، و... سألته فى هدوء هل تعرف الفارق ما بين الكتب المصورة، والكتب المرسومة؟ ارتبك، وارتج عليه، وحاول أن يرد، وكان واضحًا أنه يريد أن ينقذ ماء وجهه، كان واضحًا أنه لا يعرف ماهى الكتب المصورة.. وكان من الضرورى أن أقوم بالتعريف بهذه الكتب تعريفًا طويلاً وشاملاً ليدرك أن كتب الحضانة ورياض الأطفال شيء، والكتب المصورة شيء آخر. الأولى تعليمية، والثانية أدبية وفنية ودرامية وعلى أعلى مستوى من الجودة فى هذه الجوانب الثلاثة.

٢- طلبت إحدى الهيئات الدولية من جهة رسمية مصرية تعمل فى مجال ثقافة الأطفال موافاتها بالكتب المصورة الصادرة فى بلادنا، وعهدت هذه الجهة إلى أستاذة جامعية، لها عديد من المؤلفات حول ثقافة الأطفال وأدبهم، باقتناء هذه الكتب وشرائها تمهيدًا لإرسالها إلى الهيئة الدولية.. واتصلت بى بعد أيام تقول إنها لم تجد فى الأسواق كتبًا فيها صور فوتوغرافية فلم تجد.. وهالنى الأمر، فإن هذه الفكرة يمكن أن تسبب لنا فضيحة عالمية، ورحت أشرح لها ما يقصدونه بالكتب "المصورة"، وقد أذهلها أن تقع فى مثل هذا الخطأ، وهو ناجم من قلة اهتمامنا بهذا اللون المهم من ألوان كتب الأطفال.

٣- أذكر أنى اقترحت فى الثمانينيات على أصدقائى فى بغداد ترجمة كتاب "ملايين القطط" الذى يعد أول كتاب مصور ظهر فى تاريخ كتب الأطفال، لمؤلفته الأمريكية "وندا جاج"، وقد صدر عام ١٩٢٨.. وعدت لأجد أن المرحوم فتحى خليل ترجم القصة، وكانت مفاجأة قاسية لى أنهم أعادوا رسمه؛ وبذلك دمرت فكرة تكامل النص المكتوب مع الرسم المصاحب له، وضاع الهدف الذى كنت أسعى إليه.. ومن وندا إلى موريس سنداك – أشهر مؤلفى الكتب المصورة ورساميها، ظهرت عشرات الآلاف من الكتب المصورة، وتقاعسنا نحن عن إصدارها مع أن الفنان الكبير حسين بيكار قدم فى وقت مبكر سلسلة تحت عنوان (صندوق الدنيا) – دار المعارف – وكان بعضها ينتمى للكتب المصورة، وكان مؤلفوها هم رساموها.

فروق عديدة بين الرسم والتصوير

نجمع كلنا على أن كتب الأطفال لابد وأن تحتوى رسومًا.. ويفضلونها ملونة، وجذابة، ونرى أن الرسوم فى هذه الكتب لا تقل أهمية عن النص المكتوب.. وأحيانًا مع الأعمار الصغيرة، يمكن لتلك الرسوم أن تكون أكثر أهمية من الكلمات.. ونحن نبدأ مع السن

المبكرة بالرسوم، تغزوها بعض العبارات، تزداد رويدًا رويدًا على حساب الرسم، إلى أن يتمكن الأطفال فى مرحلة متأخرة من قراءة نصوص بدون رسوم على الإطلاق.

ويتساءل البعض : هل هذه الرسوم مجرد "زينة" للكتاب، وشىء يجتذب الأطفال إليه؟!.. أم تراها موجودة لتوضيح ما يرمى إليه الكاتب، وللفت نظر القراء الصغار إلى مواقف بذاتها فى العمل، هى جديرة بأن يهتم بها؟ وهل من الممكن أن تكون "إضافة" للنص من أجل زيادة التأثير فى القارئ، لينفعل القارئ بالرسم جنبًا إلى جنب الكتابة؟!..

فى تقديرى الخاص أن الرسم والتصوير إذا كان للتزيين والتوضيح والإضافة فإن ذلك ليسىء للفنان الرسام، أو المصور إساءة بالغة.

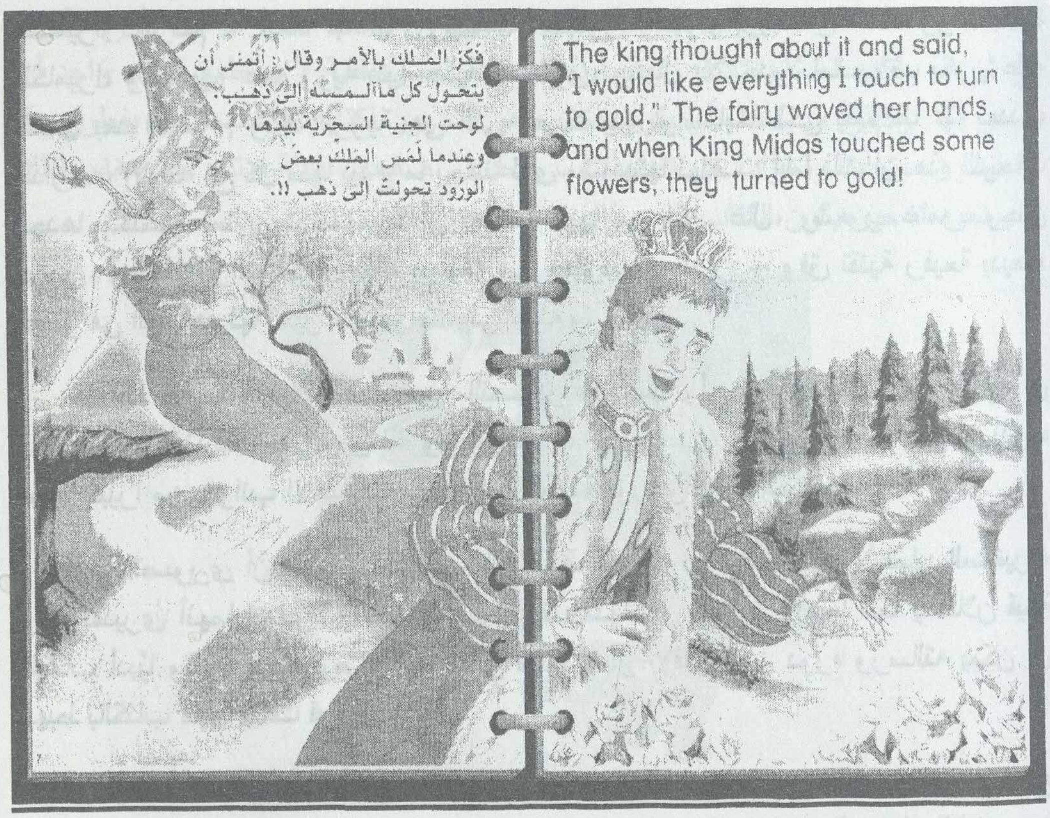

فروق جوهرية ما بين الرسم والتصوير

ما هو الفارق بين الصورة والرسم عامة؟ كلاهما فن، وكل منهما له من يتقنه إلى حد كبير.. وترتبط كلمة الصورة بآلة التصوير – الكاميرا – التى يختار لها صاحبها ما يجعل منها فنًا، وليس مجرد آله تنقل ما هو أمامها، وتثبته على الورق.. وقليلون هم الذين يتنبهون إلى أن آلة التصوير واحدة من أروع المخترعات الإنسانية، ولها خدماتها الجليلة فى الحياة، وكم بهرتنا بجمالها، خاصة إذا كان صاحبها يشكل فى رأسه تلك اللوحة الفنية التى سوف

يلتقطها قبل أن يضع إصبعه على الزر.. كما أن الكاميرا كانت وراء فنين بديعين : السينما والتليفزيون.. وحين نتحدث عن "التصوير" فإننا لا نتكلم عن الهواة من أمثالنا، الذين يريدون مجرد تثبيت لحظة من لحظات الزمن للنشر، أو للذكرى، أو لبطاقة شخصية، أو جواز سفر.. وإنما نتحدث عن فنانين أجادوا استخدام هذه الآلة، وأبدعوا بها فنًا يصلح للمعارض، ويستوقف متذوقيه بالأوضاع والزوايا، مما يرقى بهذا الفن ويجعل منه شيئًا آخر يتجاوزون به المصورين المحترفين إلى فئة موهوبة، هى المصورون الفنانون الذين تزخر صورهم بالموضوعات والأفكار والمشاعر، فيرى أصحاب العيون المدربة أنفسهم أمام لوحة فنية.

أما الرسم، فكثيرًا ما يحدث أن ندين أصحابه حين يجعلونه مثل الصور التى تلتقطها الكاميرا.. الرسم له أبعاد جمالية، وصاحبه يتجاوز بالقلم والريشة هذه الصور الجامدة للكاميرا، وصاحبه عنده رؤية فنية عالية المستوى، وخيال بلا حدود لما سوف يكون عليه العمل بعد إتمامه.. وتلك الرؤية هى التى تحرك يده، وأصابعه لكى يقدم لنا فنًا تعددت مدارسه، إلا أنه مع كل منها يبدع ما يجعلنا لدى مشاهدتها نهتف : الله! ذلك أن هذه اللوحات نجدها محتشدة لما يريد صاحبها أن يصنعه فيها من فكر عال، وشعور غامر، وحس فياض، وعاطفة زاخرة، كل ذلك يصيغه فى خطوط - وألوان – وفق تقنية رفيعة بديعة، فيؤثر فى المشاهد لها تأثيرًا عميقًا يمتد إلى عقله ووجدانه.

هل إذا عرفنا هذه الفروق ما بين التصوير والرسم، وأحسسنا بها أكثر من مجرد أن نعرفها، يساعدنا ذلك على تبين الفروق الواسعة ما بين الفنين، وبالتالى يعيننا على أن ندرك جانبًا كبيرًا من جوانب الاختلاف ما بين الكتب المصورة والكتب المرسومة.

وفى تصورى أن الرسم يتساوى مع الكتابة، بل أنه يتجاوزها مع الأعمار الصغيرة، وفى تقديرى أنهما ضفيرة واحدة لا يقل طرف منها عن الآخر.. أنهما معًا يشكلان قيمة الكتاب أدبيًا وفنيًا، وعدم وضع الرسم فى مكانته، أو الإقلال من دوره ورسالته يمكن أن يهبط بالكتاب مهما بلغت قيمته الأدبية.

وتأليف الكتاب ورسمه - مهما بلغت درجة إتقان ذلك - لن يكفيا لنجاحه؛ إذ إن الإخراج له أهميته القصوى، وإخراج الكتاب لا يقل قط عن إخراج الدراما فى السينما والتليفزيون؛ لأن المخرج يجمع بين يديه عدة عناصر من اللازم تضافرها لإنجاح الكتاب. "بنط" الطباعة، والتزاوج ما بين المكتوب والمرسوم، وأيضًا "القطع" المناسب، ونوع الورق، بل وتجليد الكتاب وما إلى ذلك. إن البعض ينظر إليها فى استخفاف، وإذا ما قارنا بين كتاب عربى، وكتاب غربى للطفل سوف نجد أن الفرق كبير، بل وشاسع. إن كل صغيرة وكبيرة فى الكتاب يجب أن تحظى بأكبر قدر ممكن من الاهتمام. وكم من كتاب فشل بسبب سوء فصل الألوان، أو سوء وضع الصور، ولن أنسى كتابًا للأطفال وضع طابعوه فى السطر

الواحد عشرين كلمة وأكثر. إن القارئ الصغير يلهث مع قراءة كل سطر فيه، ولما نبهت "المخرج" لذلك وضع فى الطبعة الثانية ما لا يزيد على خمس أو ست كلمات فى السطر.

وأنا هنا لست بناقل أو مترجم، ويقينًا يستطيع الفنانون التشكيليون أن يضيفوا الكثير من الفروق والاختلافات، خاصة وأننى لم أجد فى المراجع التى بين يدى – مع تعددها – شيئًا من هذا القبيل، إذ رسخ مفهوم الكتب المصورة لديهم إلى حد ما عادوا يحتاجون معه إلى هذه المحاولة. هناك كتب مرسومة، وأخرى مصورة، والأخيرة قليلة الكلمات إلى أقصى حد، وما يمكن أن تقوله الصورة لا يتطرق الكلام إليه، وتكاد الكلمات أن تكون مجرد إشارات، وإن كانت مشحونة بالأفكار والمشاعر، ويتعاون الطرفان أى الكلمات والصور من أجل إيصال مفاهيم كبيرة وعميقة، والفصل بينهما مستحيل؛ إذ ليس كافيًا أن يقرأ الطفل الكلمات وحدها، فلن تستقيم إلا إذا تطلع إلى الصور، ومتابعة الصور وحدها لن يصل به إلى شىء، ولكنهما معًا يتكاتفان، ليقدما نصًا أدبيًا وصورًا فنية لا يستطيع جانب واحد أن ينهض بها. وكثيرًا ما يحدث أن يكون الكاتب هو المصور لكتابه، وأغلب الذين يفعلون هذا قد يقضون سنوات وسنوات فى تقديم كتاب واحد فى صفحات قليلة تمتلئ بفن مغاير لذلك الذى تعودناه حين يكون الكتاب مرسومًا.

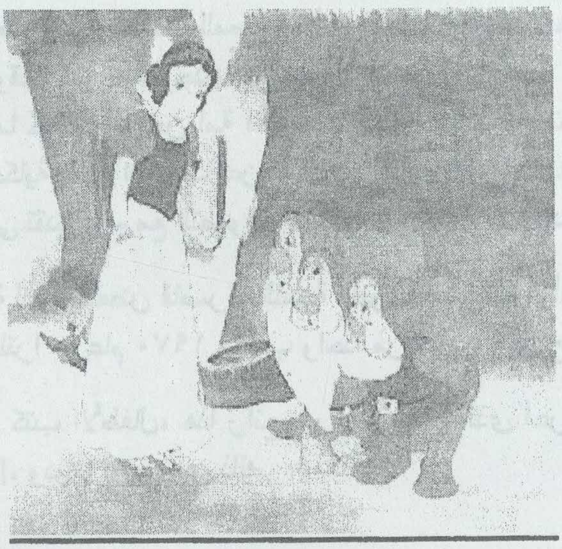

لماذا لم نقدم الكتب المصورة؟

هناك أسباب عدة لذلك، ربما كان فى مقدمتها أن قلة من الفنانين هم القادرون على "تأليف" الكتب للأطفال، وإذا ما كتبوا فإنهم يحسون إحساسًا عميقًا بأن ما كتبوه متواضع القيمة إزاء فنهم الرفيع فى التصوير والرسم. أما الذين يكتبون ويرسمون، فهم ندرة، وهم يسهبون فى الكلام، بما لا يتناسب مع طبيعة الكتب المصورة. ونستطيع أن نذكر أسماء

مئات من الرسامين الذين يكتبون أعمالهم لأنفسهم فى الغرب، ولا نجد لدينا أكثر من عدد لا يصل إلى أصابع يد واحدة. هذا فى تقديرى أول الأسباب.

وهناك سبب آخر يتعلق بالناشرين : أن هذه الكتب تحتاج لجهد غير عادى لإنتاجها، ورقا، وطباعة، وألوانًا، ومع هذه التكلفة المرتفعة يرتفع سعر الكتاب ليصبح فوق القدرة الشرائية، ولا يقبل الآباء على شرائه واقتنائه. خاصة وهم يلحظون أن كلماته قليلة جدًا، وقد سمعت أبًا يقول :

- كم تساوى الكلمة فى هذا الكتاب؟! لن أشتريه!! ولو أدرك الأب ذلك الأثر العميق الذى يمكن أن يحدثه هذا الكتاب فى نفس ابنه وعقله لأقبل عليه، ودفع ثمنه راضيًا.

إن بعض الكتب المصورة يكون أثيرًا لدى الطفل إلى حد ملازمته له، ليصبح مثل ظله، وهو يحتضنه كالدمية، ولست أنسى ما قيل لى فى طفولتى عن كتاب أحببته. قالوا : لقد نفدت طبعته. وإذا بى أخفيه عن أعين الجميع، وأحتفظ به فى مكان لا يمكن ليد أن تصل إليه؛ لأننى فهمت من هذه العبارة – نفاد طبعته – أنه ما عاد فى الدنيا نسخة أخرى من هذا الكتاب؛ لذلك خفت أن أفقده، وصار "كنزى" الذى أصونه، وأحميه، بل وأقرأه فى الخفاء.

وثالث الأسباب لعدم انتشار الكتب المصورة أنها لم ترُقْ لنا كما حدث مع المسرح فيما مضى، ومن بعض الوقت كان هناك جدل حول : هل الشعر أم الرواية : ديوان العرب؟! إذا كان هو أو هى، فإنهما كلمات، ونحن أمة احتفت بالكلمة أكثر مما احتفت بالصور والرسم والتشكيل، وتكفى الحكاية التى انتشرت عن أب فى الخليج أخرج ابنه من المدرسة لأنها تعلمه "الرسم" وهو فى تقديره – مع التصوير طبعًا – حرام إلى يوم الدين.

إن النظرة الدينية لدى البعض قاصرة بالنسبة للفنون التشكيلية. وأذكر أن رئيس اتحاد كتاب الأطفال فى انجلترا – عام ١٩٧٠ – قلب واحدًا من كتبى، وصاح :

- أنتم ترسمون كتب الأطفال، هذا رائع.. وغريب. إن الذى أعرفه أن دينكم الإسلام يحرّم الرسم!!، وديننا برىء من ذلك.